دَيْن لأبي العلاء

يطلب الوفاء

كلما فكَّرت في أبي العلاء ... هذا الإنسان الذي تمثلت فيه الإنسانية بتمامها ، وجدته مهضوم الحق ، خافتَ الصوت ، لم ينصفه الأدب حق الإنصاف ، ولم يعرف منزلته الأدباء .

لقد كان هذا الرجل الأعمى بصراً أكثر البصائر تفتحاً أمام مسائل الكون والحياة . ويكفيه شرفاً أنه أول من أعرض في أدبه عن أن يتخذ الأدب متاعاً كاذباً ، لتحقيق غاية زائلة .

ومذ تسامى بروحه عن أعراض الحياة وأشكالها الكاذبة ، أطلَّ على عالم مضطرب معوجّ أراد تقويمه ، وحقائق محجوبة أراد كشفها !

لقد كان أبو العلاء شاعر العقل والنفس ، وإن لم يكن شاعر الصور والأخيلة ، شاعر الحقيقة التي كرَّس حياته لجلائها ؛ لا شاعر المدح والهجاء . شاعر الذات التي كانت تبحث عن نفسها وعن غيرها في الحياة ؛ لا شاعر الذات التي لا تتقمص إلا ذاتها .

ترك لنا أبو العلاء ـ فيما ترك ـ ديوانين : الأول — سقط الزند الذي نظمه في شبابه ؛ ولم يكن إلا صدًى لأصوات سابقة ، ومحاكاةً لمعانٍ لا يضيرنا إن كانت أو لم تكن ، والثاني — لزوم مالا يلزم ، وهو الديوان الذي لا مثيل له في ديوان العرب ، بمعانيه الطريفة التي طرقها ، وأسلوبه الذي اصطنعه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ومن العجب أن نرى الديوان الأول قد شغل الأدباء ، والشرّاح في الماضي ، حتى كان له أكثر من شرح واحد ، بينما أهملوا الديوان الثاني ، وتركوه بطلاسمه المبهمة ، دون أن يهتموا بما فيه من حياة .

ولذلك ، لا بد لنا ، من أن نتساءل :

لماذا أحجم القدماء عن شرحه ، والاعتناء به كما اعتنوا بسقط الزند ؟

ألأنه غير جدير بالمطالعة والشرح ؟ أم لأنهم لم يألفوا مع أغراضه الجديدة ؟ أم لأنهم لم يستطيعوا اللحاق بغاياته ؟ أم لأنه كان عسير الفهم على الأفهام ؟ عسير الشرح على الشرّاح ؟

أسئلة كثيرة نطرحها ولا نلق لها جواباً صريحاً شافياً ، وفي الحق أن هذه الأسئلة كلها ترد في هذا المجال !

لا شك أن أبا العلاء نهج في ديوانه « لزوم ما لا يلزم » نهجاً جديداً يختلف عن أيّ نهج في السابق واللاحق .

أما من حيث موضوعاته فقد تنكّب فيه أغراض القدماء ، من مدح ورثاء ، ووصف وهجاء ، واتخذ الحياة والمجتمع غايته في ديوانه ، ولئن كان لبعض الشعراء نصيبٌ ما من هذه الموضوعات فهو نصيب ضئيل ؛ لا يكاد ينهض لما كابده أبو العلاء وعاناه في ما أتى به !

فهل ، يا ترى ، أطلق أبو العلاء على ديوانه اسم « لزوم ما لا يلزم » إشارة منه إلى هذه المعاني التي التزمها هو ، ولم يلتزمها الشعراء قبله ؟ على أن النقاد ، وأبا العلاء نفسه يذهبون في هذه التسمية إلى ناحية الشكل الذي قيّد به أبو العلاء نفسه ، وهي قيود أضيق من القيود التي اصطلح عليها الشعراء عادةً في قوافيهم . ولا ندري سبباً وجيهاً لتمسك أبي العلاء بهذه القيود في موضوعات دقيقة ، تتطلب السماحة في الشكل ، لتقوم بحمل أعباء

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المعاني ، أكثر مما تتطلب التشدد . وبذلك جمع على نفسه مختاراً بين عمق المعاني وضيق القوافي .

وبعض النقاد يذهب إلى أن أبا العلاء أراد أن يتسامى بمعانيه عن القارىء العاديّ ، الذي لابد أن تأخذه الدهشة من هذه الجرأة ، وهذا التمرد على الأفكار الموروثة ، خشيةَ ان يستثير النقمة عليه ... ولكن أكثر أفكاره تمرداً جاءت على صورة واضحة لا تخفى عن القارىء البسيط .

ولكن هذا لا يمنع أن تكون « اللزوميات » ديواناً صعباً ، عسير المنال ، لما اشتبك فيه من معلومات واسعة ، وثقافة معقدة ، وغايات متباينة .

ولذلك ظلت اللزوميات ديواناً وعراً ، غريباً في سربه ، لا يقبل عليه إلا صفوة الخاصة ، ولا يطرب له إلا ذو عقل جبار متفتح ، يستطيع أن ينفذ من أشواكه اللاذعة إلى وردته المنفتحة على عالم يختلج بأسمى الأفكار والعواطف .

واللزوميات التي أهملها الشرّاح ، ونأى عنها الأدباء ، هي في الحق مجلى فلسفة أبي العلاء ، ومرآة وجهه الحقيقي في حياته وتفكيره ... وقلّما يقع الخاطر على ديوان شعر اتخذ الفكر مطيته ، أن يكون بمنزله الاعترافات الذاتية التي تروي لنا سيرة مفكر عبقري ، وتسجل مراحل تفكيره ، وخواطره المتمزقة التي تذهب بعناد نحو اكتشاف الحقيقة !

ولعل « أمين الريحاني » أول أديب عربي أدرك قيمة اللزوميات ، وتعاطف فكره مع فكر صاحبها ، وآنس فيه نغمة تشبه نغمة الخيام في رباعياته ، وإن اختلفت النغمتان صورة وغايةً ؛ فاختار من اللزوميات ما يحرك الضمائر ، ويلهم العقول ، وترجم ما اختاره إلى رباعيات باللغة الانجليزية ، على طريقة رباعيات الخيام . ولا ريب أن غايته الأولى كانت متجهة إلى أدباء الغرب ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والمستشرقين منهم الذين عُنوا بجمع دواوين العرب وتحقيقها ونشرها . ليدلّهم على ما أهملوه في دراساتهم ، كما أهمله العرب في عُقر ديارهم . وهو يؤمن بأن أبا العلاء كان أصدق شعراء العرب نغمةً ، وأكثرهم التزاماً بالروح الإنسانية .

ولكن هذا كله لا يكفي للوفاء بما علينا من دَيْن لأبي العلاء !

وتلك هي اللجنة التي احتفلت ـ منذ أعوام ـ بالعيد الألفي لأبي العلاء ، وأخرجت بعض آثاره إخراجاً حسناً متقناً : مالت ميلاً خاطئاً نحو إحياء أثر عادي من آثاره ، كسقط الزند ـ وأعرضت عن تراث ضخم ، قيّم كاللزوميات ، هو ـ في الحق ـ مأثرة مآثر أبي العلاء .

وكأني بالدكتور طه حسين الذي عاش مع أبي العلاء كثيراً ، وأكبّ على دراسته طويلاً ، في مطلع تفتحه الأدبي ، أدرك هذا النقص ؛ فأحب أن يترجم لزوميات أبي العلاء إلى لغة عربية سهلة ، تمكّن القراء من التمتع بهذا الأثر العصيّ ، فأعطانا « صوت أبي العلاء » ثم الجزء الأول من شرح « لزوم ما لا يلزم » نثراً طيّعاً واضحاً ، متأنقاً . ولكن العمل توقف فجأة ، وعادت اللزوميات إلى ما يحيط بها من غموض .

وليس لنا أن نلوم طه حسين على هذا التوقف ، ولا أن نحضّه على إنجاز ما بدأ به ؛ لأن شرح اللزوميات ، في رأيي ، أكبر من أن ينهض به رجل واحد ، مهما أوتي من سعة العلم ، وروعة البيان ؛ لأن اللزوميات ، في الحق ، تشبه معلمة كبرى قدّمها ذو عقل جبّار ، لكثرة ما اشتبك فيها من أغراض شتّى ، تتصل بمعارف ذلك العصر وعلومه ، وأدبه وسياسته ومجتمعه ، وفلسفته ولغته ، وفلكه ونوازعه الدينية والمذهبية .

وما دام الأمر كذلك ، وما دام شرح اللزوميات بات أمراً لا مفرّ منه إذا شئنا تقييم فلسفة أبي العلاء تقييماً صحيحاً ، فإن ذلك يحتاج إلى فئة من الشرّاح مختلفي الثقافة ، مطّلعين أحسن اطلاع على الثقافة العربية ، المنقولة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والموضوعة ، ليقدروا على الإلمام بشرحها ، وتفسير وجوهها ، وتوضيح أفكارها ؛ لأن أبا العلاء لم يكن إلا ابن ذلك العصر الذهبي الذي وصلت فيه الثقافة العربية إلى أعلى قمة من قممها . . . حيث امتزج العقل اليوناني والهندي والفارسي ، ونضج المنطق العربي ، وتجسدت الفلسفة العربية ، فكان من ذلك كله مزيج انعكست فيه الحضارة الإنسانية !

وفي اللزوميات أشياء كثيرة هي غير الصنعة اللغوية ؛ يترنح فيها العقل اليوناني ، وينعكس فيها المذهب الهندي ، وفيها إشارات إلى الأديان والمذاهب والعلوم على اختلافها ... فلا الأديب وحده يستطيع أن يفهمها ، ولا العالم وحده يقدر أن يكشفها ، وإنما ما يجب هو أن تتضافر الجهود الأدبية واللغوية والعلمية لتفسير ما جاءَ في اللزوميات ؛ فالأديب واجبه أن ييسّر الصناعة المعقدة لأن أبا العلاء ، بقدر ما كانت حياته بسيطة ، كانت صناعته معقّدة . والفيلسوف همّه أن يجلو الخطرات الفلسفية ، وعالم الدين أن يكشف عن الأسرار الدينية ، والعالم أن يتقصّى الموثرات العلمية ، في علم التشريح والفلك . وبتضافر هذه الجهود يتيسّر شرح اللزوميات !

وإنه لعمل جليل لا يُعدّ القعود عنه إلا تقصيراً ، ويقيناً لو أن المعري في الأحياءِ لكان أجدر الناس بجائزة « نوبل » للسلام ؛ لأنه أول من فكّر في ضرورة السلام والعدالة الاجتماعية ، وتحرير العقل من ربقة الأوهام ، وبناء مجتمع متحقق فيه المساواة ؛ فكان بذلك سابق عصره !

وبدون ذلك ، لن يدخل المعري في عداد الذين أنصفناهم من شعراء وأدباء ، وهم دونه تفكيراً وشعوراً ... وستظلّ هامته تصيح ، حتى يخرج ديوانه اللزوميات مشروحاً كما يجب .

هذه دعوة إلى رجال الفكر والأدب ، في دنيا العرب ؛ فهل يقدمون على ذلك ، ومتى ؟

خليل الهنداوي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net